

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

قراءة تاريخية في رحلة جون ساندerson إلى الدولة العثمانية 1584-1602م
A Historical Reading of John Sanderson's Journey to the Ottoman
Empire 1584-1602

فاطمة الزهراء حاج إسماعيل¹، نادية طرشون²، غالي غربي³

¹ دكتورة، مخبر الدراسات التاريخية والمتوسطة عبر العصور- جامعة المدية، الجزائر.

hadjismail.fatmazohra@univ-medea.dz

² أستاذة تعليم عالي، مخبر الدراسات التاريخية والمتوسطة عبر العصور- جامعة المدية، الجزائر.

kaligherbi@yahoo.fr

³ أستاذ تعليم عالي، مخبر الدراسات التاريخية والمتوسطة عبر العصور- جامعة المدية، الجزائر.

kaligherbi@yahoo.fr

المؤلف المرسل: فاطمة الزهراء حاج إسماعيل (Zohra Fatima Ysmael Hadj)، *hadj.mezora@gmail.com*

تاريخ النشر: 2026/07/15

تاريخ القبول: 2026/01/15

تاريخ الاستلام: 2025/09/27

الملخص:

تدرس هاته الورقة البحثية كتاب رحلات جون ساندerson (John Sanderson) الى الشرق في 1584-1602م، وملاحظاته عن إسطنبول بصفة خاصة والدولة العثمانية بصفة عامة. تُمثل رحلة التاجر الإنجليزي جون ساندerson الى الدولة العثمانية مصدراً مهماً لفهم طبيعة العلاقات العثمانية الإنجليزية خلال العقود الأخيرة من القرن 16م، في مرحلة شهدت تحولات استراتيجية في ميزان القوى داخل البحر الأبيض المتوسط، حيث تأتي هاته الرحلة في سياق توسع النفوذ التجاري الأوروبي في الأراضي العثمانية، لاسيما تلك التي تبتتها شركة المشرق (Levant Company) التي كانت تحاول تثبيت وجودها في الأسواق العثمانية، ومنافسة القوى التجارية التقليدية كالبندقية وفرنسا. قدم ساندerson شهادات دقيقة حول جوانب متعددة من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إسطنبول ومدن عثمانية أخرى، انطلاقاً من موقعه كمندوب تجاري وملاحظ مباشر للواقع العثماني آنذاك. الكلمات المفتاحية: جون ساندerson، الرحلة، الدولة العثمانية، إنجلترا، شركة المشرق.

Abstract:

This research paper studies the travel book of John Sanderson (1584–1602) and his observations about Istanbul in particular and the Ottoman Empire in general.

The journey of the English merchant John Sanderson to the Ottoman Empire represents an important source for understanding the nature of Anglo-Ottoman relations during the final decades of the 16th century—a period marked by strategic shifts in the balance of power within the Mediterranean. This journey took place in the context of the expanding European commercial presence in Ottoman territories, particularly that promoted by the Levant Company, which sought to establish a foothold in Ottoman markets and to compete with traditional trading powers such as Venice and France.

From his position as a trade representative and direct observer of Ottoman realities at the time, Sanderson provided detailed accounts of various aspects of political, social, and economic life in Istanbul and other Ottoman cities.

Keywords: John Sanderson, Journey, Ottoman Empire, Levent company.

مقدمة:

ومن بين الرحلات نجد رحلة التاجر الإنجليزي "جون

ساندerson" "John Sanderson" الى الدولة العثمانية نهاية ال قرن 16 م، التي تحمل عنوان "The travels of John Sanderson in the levant 1584 -1602 " رحلات جون ساندerson الى المشرق 1584-1602 " والتي هي على قدر كبير من الأهمية للباحثين، ليس فقط لأنها جاءت في وقت كانت فيه العلاقات العثمانية-الإنجليزية في بداياتها، ولكن أيضاً لأنها تمثل نموذجاً مبكراً لما يمكن تسميته بالتمثيل

عرفت نهاية القرن السادس عشر ميلادي تحولات كبرى في بنية علاقات الدول بصفة عامة، والعلاقات بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية التي كانت تشكل قوة سياسية واقتصادية في العالم آنذاك بصفة خاصة، وفي هذا السياق تندرج الرحلة الأوروبية الى المشرق بصفها أداة استكشافية، ناهيك عن كونها أيضاً وسيلة دبلوماسية وتجارية، تساهم بشكل أو بآخر في تشكيل صورة الآخر، وتدعم مصالح الجهة المُرسلة للرحال.

ليتمكن العثمانيون في 1578م من السيطرة على هذا الطريق بإخضاع كل من أذربيجان وشيروان -شمال أذربيجان-. بعد هزيمة لبانت 1571م (4) ضعفت هيمنة العثمانيين على المتوسط، إضافة الى تراجع قوة البندقية التي لم تعد قادرة على القيام برحلات طويلة في المتوسط، ليظهر الانجليز مجدا في غرب المتوسط منذ 1573م، ثم في شرقه في 1579م، مما اضطر الانجليز لمعاودة الاتصال بالسلطان العثماني، لوجود عدة عوامل للتقارب بين الطرفين، لعل في مقدمتها يأتي العدو المشترك وهو اسبانيا، لتمنح إنجلترا أول امتياز تجاري في 1580 ثم امتياز آخر في 1583م أوسع من الأول (5).

كان هذا التقدم في العلاقات في عهد ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى 1558-1603م (6)، والسلطان العثماني مراد الثالث 1574-1595م (7) التي طلبت منه في رسالة له مساعدتها ضد الكاثوليك الذين سمّتهم "عبدة الأصنام" ليكتب لها هو بدوره في 1580م "انتم كذلك عليكم بالسمع والطاعة والانقياد لبابي العالي" ووعدتها بالمساعدة المالية والعسكرية (8).

كما منحها امتياز خاص لتجارها، حتى انه سمح لسفنهم الحاملة للعلم الإنجليزي، بالدخول الى موانئه، وهذا ما لم يكن يسمح به سابقا، اذ كان على كل السفن -عدا سفن البندقية- الدخول الى موانئ الدولة العثمانية تحت العلم الفرنسي (9)، وذلك كما قضت به معاهدة الامتيازات 1535-1536م (10).

بدأت العلاقات بين الدولة العثمانية وإنجلترا في النصف الثاني من القرن 16م، خلال صدارة "محمد باشا صقلي" (11) الذي عرف باتباعه سياسة السلام، كما احسن معاملة السفير الإنجليزي نهاية ق 16م، هاته الفترة التي شهدت فيها الدول الأوروبية حروباً داخلية وخارجية، خاصة فرنسا التي شهدت آنذاك حروباً دينية شغلتهما عن الدور الاقتصادي الذي كانت تلعبه في المتوسط حينها، ما جعل تاجران انجليزيان يستغلان الفرصة، وهما "ادوارد اوزبورن" Edward Osborne و"ريتشارد ستابر" Richard Staper حيث منحتهما الحكومة العثمانية الإذن بممارسة التجارة على أراضيها في 1575م، ليبدأ السفراء الإنجليز بالدخول إلى إسطنبول والاستقرار بها لحماية مصالح شركة الشرق أولا، ولتمثيل وحماية مصالح بريطاني ثانية، وعليه نُقسم هاته المرحلة الأولى

الاستكشافي التجاري، حيث اجتمع في جون ساندرسون كل من التاجر، والملاحظ، والوسيط الثقافي.

إن قراءة هذه الرحلة لا تتيح فقط فهما عميقا للرؤية الإنجليزية تجاه العثمانيين في أواخر القرن السادس عشر، وانما تزيد على ذلك في الكشف عن مدى ترابط الرحلة مع التحولات السياسية والتجارية الكبرى، مثل تأسيس شركة المشرق Levant company (1)، وتوسيع الامتيازات العثمانية داخل الأراضي العثمانية.

ومن هذا المنطلق جاءت هاته الدراسة التي تبحث في رحلة جون ساندرسون إلى الدولة العثمانية على ضوء سياقها التاريخي والسياسي والثقافي، ناهيك عن الاقتصادي من خلال محاولة الإجابة على الأسئلة التالية:

كيف مثل جون ساندرسون الدولة العثمانية في خطابه الرخلي؟ وكيف انعكست رحلته على صورة الدولة العثمانية في الذهن الإنجليزي؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار رحلته وثيقة تاريخية أرخت لتلك الفترة؟

الاتصالات الأولى العثمانية البريطانية وتطور العلاقات بين 1574-1603م:

يخيم الظلام على بدء العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وإنجلترا، حتى بالنسبة للتجارة بين الانجليز وشرق البحر المتوسط فقد كانت في أيدي المدن الإيطالية (البندقية، جنوة، فلورنسا) التي كانت بمثابة همزة وصل بين الشرق والغرب (2).

أول احتكاك بين العثمانيين والإنجليز سنة 1396م كان خلال معركة نيقوبولس (3)، وكان ذلك بانضمام قوة انجليزية صغيرة الى التحالف الصليبي ضد الدولة العثمانية، لكن تجدر الإشارة الى ان هذا اللقاء لا يعد اتصال مباشر بين الدولتين، ففي الواقع لم تبدأ العلاقات الرسمية بينهما الا بعد قرابة قرنين من الزمن.

تأخرت بريطانيا في تمتعها بنظام الامتيازات الأجنبية مقارنة مع فرنسا، حيث كان السلطان سليمان القانوني يسمح للتجار الانجليز منذ 1553م بالتجارة في الإمبراطورية العثمانية، الا انهم لم يستغلوا هذا الامتياز حين ذاك، لانهم كانوا يرغبون بالتجارة المباشرة للحصول على أسعار أرخص، ما جعلهم يبحثون عن طرق جديدة مثل طريق موسكو الى هرمز عبر ايران، لكن فطنة العثمانيين جعلتهم يرسلون الى الشاه في 1562م لعرقلتهم وتغير اتجاه الطريق التجاري،

من العلاقات العثمانية البريطانية إلى أولا: فترة سفارة "وليام هاربون" William Harborne (12) (1583-1588)م الذي استقر بإسطنبول في 28 أكتوبر 1578م لتمثيل التاجران الإنجليزيان السابق ذكرهما بها، والذي حرص على إقامة علاقات مع شخصيات نافذة في البلاط العثماني، ليتمكن في مارس 1579م من العودة إلى إنجلترا برسالة من السلطان العثماني إلى ملكة إنجلترا تفيد بأنه تم منح ثلاث تجار إنجليز إذن بالتجارة في الأراضي العثمانية، إضافة إلى منع أي تعدي عليهم وعلى ممتلكاتهم، أو إزعاجهم بعد دفعهم للرسوم الجمركية وحصولهم على إذن مختوم (13).

ليعود "هاربون" إلى إسطنبول في أكتوبر 1579م برسالة ثانية من الملكة إليزابيث إلى السلطان مراد الثالث تشكره فيها على الامتيازات التجارية الممنوحة، وطالبته فيها أن يوسع منح الامتيازات لتجار إنجليز آخرين، كما ذكرت فيها أن التجار العثمانيين أيضا يسمح لهم بالتجارة في إنجلترا، إضافة إلى منحهم كل التسهيلات اللازمة، وبهذا يتحصل الإنجليز على نفس الامتيازات التي كان قد حضي بها الفرنسيون، وأصبح هاربون ممثل بريطانيا دائم في إسطنبول في 1580م، إلى غاية 1588م (14)، إلا أن معاهدة التجارة الحرة هاته التي منحت للإنجليز اجبت حسد الفرنسيين، لتلغي بعد عام من إبرامها ويعود الإنجليز للتجارة تحت العلم الفرنسي ثانية لستين، لتعاود الملكة البريطانية إرسال هدايا إلى السلطان العثماني مع هاربون الذي تمكن من إبرام معاهدة في 18 ماي 1583م، تمنح الإنجليز حرية التجارة مرة أخرى، وتخفيض الرسوم الجمركية من 5% إلى 3% وهو ما سهل توسع التجارة الإنجليزية في المنطقة، كما افتتح الإنجليز مكاتب تجارية في كل من أزمير، حلب، إسكندرونة، القاهرة، دمشق، خيوس، قبرص، القدس، إضافة إلى إسطنبول في 1583م (15).

بعد عودة هاربون إلى إنجلترا عين في مكانه سكرتيه، لتعرف العلاقات العثمانية مرحلة جديدة. ثانيا: فترة سفارة "ادوارد بارتون" Edward Barton (1588-1593)م ثم بعد انتهاء ولايته وعمله بالوكالة (1593-1597)م ليصبح ثاني سفير لإنجلترا في إسطنبول، وكان تعيينه في هذا المنصب لإتقانه للغة التركية، والإيطالية والفرنسية، كما كانت معرفته الدقيقة بالأراضي العثمانية دورا هاما في تطوير العلاقات العثمانية الإنجليزية. رغم صغر سنه (16) - كان في العشرينات من عمره - و كان له دور في تعيين بطريك اليوناني في إسطنبول،

كما شارك في حملة مع الجيش العثماني في 1596م، و ساهم في توقيع معاهدة السلام بين السلطان محمد الثالث والأمير مخائيل من والاشيا في 1597م، كما اصطحبه السلطان محمد الثالث في حملة أخرى أين عين جون ساندرسون نائبا له (17)، كما نجح بارتون في لفت البلاط العثماني إلى إنجلترا بفضل الهدايا التي قدمها إلى السلطان مراد الثالث، والسلطانة صفية -زوجة السلطان مراد الثالث ووالدة السلطان محمد الثالث- في 1593م، ما دفع بهاته الأخيرة بإرسال رسالة إلى الملكة إليزابيث تشكرها فيها عن الهدايا وتبلغها فيها عن رغبتها بتقديم المساعدة لها ولرعاياها، وتجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبته السلطانة صفية في إدارة الدولة دعمها الكبير والدائم للسفير الإنجليزي بشهادتهم هم انفسهم، وواصل بارتون على نفس الوتيرة مع اعتلاء السلطان محمد الثالث الذي رافقه في حملة إيغري (18)، حيث لم يحمي مصالح بلاده فقط بل صار له وزنا في قرارات الديوان العثماني، وهذا النفوذ المتنامي أثار قلق البريطانيين انفسهم، ليتوفي بعدها بفترة قصيرة عن عمر ناهز 35 سنة، ويعين بعده السفير الجديد. ثالثا: فترة سفارة "هنري ليلو" Henry Lello (1599-1606)م وهو سكرتير بارتون (19) وأصبحت سفارته رسمية في 1599م (20) مع تقديمه لهدايا للسلطان محمد الثالث بمناسبة توليه العرش -كانت متأخرة - والتي كانت آلة موسيقية لم يسبق لها مثيل "آلة الاورغ"، واطراف إلى الهدية المميزة أرسلت الملكة إليزابيث رسالة إلى السلطان الجديد لتطلب منه المحافظة على الاتفاقية 1593م مع السلطان السابق، إضافة إلى رسالة أخرى للسلطانة صفية، حقق السفير الجديد ليلو الذي شغل هذا المنصب لـ 10 سنوات نجاحا تجاريا، حيث جدد المعاهدة مع إنجلترا بإضافة بنود جديدة في ديسمبر 1601م، هاته المعاهدة التي جعلت الإنجليز الأكثر دعما من قبل العثمانيين، ولكن رغم هذا استدعي هنري ليون إلى لندن في 1607م، والذي رغم كل إنجازاته إلا أنه تبقى سفارته أقل فاعلية من سفارتي هاربون وبارتون (21)، خاصة لعلاقته السيئة مع قائد البحرية سنان باشا الذي كان يراه تافها (22).

أما علاقة العثمانيين والبريطانيون بعد سنة 1607، فقد عين السير توماس غلوفر الذي كان بدوره سكرتير لبارتون وليمو، إلا أن الصداقة التي كانت قائمة بين الدولتين في عهد الملكة إليزابيث التي توفيت في 1603م، لم تكن نفسها عهد الملك الجديد جيمس الأول 1603-1625م الذي لم يبدي

بمدرسة "سانت بول الثانوية" أين درس اللاتينية حتى بلوغه 16 سنة، ويقول انه كان ضعيفا في الدراسة، ما جعله يدرس عند مدرسين خاصين، بعد المدرسة عمل لمدة نصف عام في المنزل بمسك الحسابات والخياطة ليعاون والده، الذي كان يعاني من ورم تحت أذنه اليمنى (حسب ما قالت والدته)، لكن والده لم يسلم نفسه ليد الأطباء إلا بعد سنوات، رغم أنه تألم كثيراً من هذا المرض، لدرجة أنه لم يعد قادراً على الإشراف على أعماله أو حتى على تسجيل حسابات الأقمشة، كتب جون ساندرسون ان والده كان لديه دائماً خدماً ومتدربون، ليتوفى في 1579م وهو يملك ثروة متواضعة، لأن هنالك تاجراً تسبب في خسارة تجارة والده.

في الجزء الإضافي من سيرته الذاتية، أورد ساندرسون بعض المعلومات عن عائلته، فيقول كان عدد الإخوة ستة وهم: جون (هو نفسه)، توماس، جاين، غريس، لوس، وروبرت. توفي آخر اثنين وهم صغار، بينما توفيت جاين عام 1583 عن عمر 17 عاماً. أما والدته "إيزابييل ساندرسون"، فقد توفيت في 1 يناير عام 1612، وكان عمرها حينها لا يقل عن 77 عاماً، وكانت تعيش أرملة منذ 33 عاماً.

وذكر ساندرسون أيضاً أنه أحب "مارغريت كالثورب"، ابنة السيد "بارثرام كالثورب"، في عامي 1588 و1589. وتحدث عن زواج أخته غريس، والمساعدة التي قدمها لها عند زواجها، أعطائها المال، وكان يقدم لها مساعدات مالية كلما ذهب إلى لندن. وقد تم جمع قيمة الهدايا أو الأموال التي قدمها لها هو وأخوه وباقي الأقارب في قائمة، وتمت الإشارة إلى أن قيمة هذه المساعدات تجاوزت 200 جنيه.

عندما بلغ جون ساندرسون 17 من عمره، قدمه عمه التاجر فوكسول إلى السيد مارتن كالثورب. وكان هذا الأخير خياطاً وتاجراً هولندياً في الأقمشة، وقد أخذه ساندرسون للعمل معه لمدة سبع سنوات، قضى أول عامين فيها كصبي مبتدئ، وكان غالباً ما يرتدي زي الصبيان المتدربين. بعد أن أصبح ساندرسون خادماً لديه، شجعه على مرافقته في رحلته إلى نورفولك. لكن في هذه الرحلة، أصيب ساندرسون بالحمى التي لم يتمكن من تجاوزها لمدة ستة أشهر. بعد ذلك، عينه كالثورب أميناً للصندوق، ثم كلفه مؤقتاً بالعمل في مجال التسويق. ولكن بعد أن خدم ساندرسون لمدة عامين دون أن يحصل على ترقية، قرر كالثورب إرساله في مهمة إلى تركيا، وقد سجله في الشركة لمدة أربع سنوات دون استشارته. وبالتالي،

اهتمام باستمرار العلاقات مع العثمانيين، و كان يميل إلى الصداقة مع الإسبان (23)، وفي هاته الأحيان كان يُرسل التجار من الدولة العثمانية إلى لندن لشراء مقتنيات ثمينة للبلاط العثماني، مثل مصطفى جاويش الذي أرسل إلى لندن في 1607 (24) ومكث بها حوالي 3 أشهر، والذي استقبله الملك جيمس الأول نفسه، والحاج إبراهيم متفرقة آغا الذي أرسله السلطان أحمد الأول 1603-1617م إلى جيمس الأول في 1610 كسفير عثماني رسمي.

نجح التجار الانجليز الذين كانوا ينشطون في شرق المتوسط في القرن 17م في القضاء على منافسيهم البنادقة وذلك لحالة السلام التي كانت قائمة بين الدولتين، ناهيك عن تزويدهم للبلاط العثماني بمواد حربية قيمة، كما لعب دور الوسيط في تجارة حرير الشرق إلى أوروبا، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه شركة المشرق هي التي كانت تعين السفراء البريطانيين في الدولة العثمانية وكانوا آنذاك يتفاوضون رواتبهم منها، وهو ما جعلهم وكلاء تجاريين أكثر من كونهم سفراء لأن دورهم الأول هو تعزيز المصالح التجارية الإنجليزية في الدولة العثمانية وحماية مصالح الشركة، ودورهم الثاني هو خدمة المصالح السياسية للحكومة الإنجليزية (25).

لنستنتج مما سبق إن دخول التجار الانجليز على الخط جعلهم في منافسة شديدة مع فرنسا والبنديقية- السباقتان لها واللذان كانتا تحتكران تجارة المشرق إلى ذلك الحين- وجعل تجارة هاتين الأخيرتين تتراجع إلى النصف في 1630م (26)، كما أخذت شركة الشرق Levant Company- تأسست بمرسوم ملكي في 11 سبتمبر 1581م والتي نجدها باسم شركة الليفانت أيضاً - بالسيطرة على الأسواق العثمانية، كما صار لإنكلترا قناصل في أراضي الدولة العثمانية.

جون ساندرسون التاجر والرحالة:

وُلد جون ساندرسون في لندن في 31 مارس عام 1560 (27). ووفقاً لما روته والدته، فقد كانت طفولته مليئة بالمشقة والمرض. ففي إحدى المرات ظهرت عليه سبعة دمايل، وبعد عدة سنوات عانى من الديدان في جسده، ولم يتعاف تماماً من هذا المرض حتى بلغ الرابعة والعشرين من عمره.

كان والده توماس ساندرسون رجلاً نبيلاً من شمال إنجلترا، لكنه أصبح لاحقاً من سكان لندن. وكان يعمل في بيع ملابس وإكسسوارات الرجال. التحق جون ساندرسون

أرسل ساندرسون للعمل تحت إمرة السيد هاربرون، الذي أصبح لاحقاً سفيراً.

عندما وصل ساندرسون إلى إسطنبول في عام 1585م، عينه السفير أميناً للسر أو سكرتيراً للسفارة، وقائماً عليها، وألبسه ملابس السيد ماسامس- ابن عضو مجلس البلدية -. عمل ساندرسون في هذا المنصب لمدة ستة أشهر، وأصابه في هذه الفترة مرض خطير، ولكنه تعافى في النهاية. بعد ذلك أرسل السفير ساندرسون إلى الإسكندرية والقاهرة. في أكتوبر 1585 (28)، ذهب إلى الإسكندرية لمساعدة المفوض التجاري "ويليام شيلز" المفوض هناك نيابة عن الشركة. كان من مهامهما دراسة التجارة والفرص والظروف في هذا المكان. لكن نظراً لبعض الصعوبات التجارية هناك، تم إرسال ساندرسون والمفوضين الآخرين إلى سوريا في عام 1587م. غادر ساندرسون طرابلس الشام في مارس 1588م عائداً إلى إنجلترا. خلال هذه الرحلة، ربح التاجر الذي كان يعمل معه 5 آلاف جنيه، بينما جلبت السفينة بضائع تزيد قيمتها عن 70 ألف جنيه. بعد أن شاهد هذا الربح، قرر ساندرسون أن يدخل بنفسه في مجال التجارة. ترك الشركة وبناءً على تأثير مارتن كالثورب، انتقل للعمل في شركة هولندية في مدينة ميدلبورغ. في عام 1588 فقدت التجارة البريطانية في البحر الأبيض المتوسط أهميتها لفترة من الزمن، كان السبب في ذلك هو انتهاء حقوق التجارة للبريطانيين في البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى الحرب بين إنجلترا وإسبانيا، مما جعل السفن التجارية البريطانية غير آمنة. لذلك قرر ساندرسون التوجه إلى جزر الهند الشرقية، وكان هو والمفوضين المرافقين له قد دفعوا تكاليف الرحلة بأنفسهم.

رحلة ساندرسون إلى جزر الهند الشرقية في عام 1590 م لم تكتمل بسبب هجمات السفن الحربية الإسبانية والعواصف العاتية، مما أدى إلى عودة السفينة إلى إنجلترا في فبراير 1591م.

عرفت التجارة ازدهاراً في البحر الأبيض المتوسط في عام 1592 م، كما منحت الحكومة البريطانية شركة ليفانت إذناً للتجارة في الموانئ العثمانية، والمناطق التي تمتد حتى جزر الهند الشرقية. في نفس العام ذهب ساندرسون مرة أخرى إلى إسطنبول ليعمل في التجارة لصالح توماس كورديل، وأيضاً أدار أعمالاً أخرى نيابة عن أعضاء الشركة الآخرين. ولما تم تعيين إدوارد بارتون كسفير، أشار ساندرسون إلى أنه عندما

كان يقيم في مقر السفارة، وجد بارتون شخصاً مختلفاً عن انطباعاته السابقة عنه، حيث وجده شخص يهتم بالرفاهية والملاذات.

عندما قرر السلطان مراد الثالث الخروج في حملة على "إيغري"، وعلم أن بارتون سيشاركه في الحملة، قرر تعيين ساندرسون كمساعد ووكيل له لدى الوزير "حسن باشا" طوال مدة الحملة التي استمرت ستة أشهر، بهذه الطريقة حصل ساندرسون على فرصة للتعرف على البلاط.

في 23 سبتمبر 1597م غادر ساندرسون إسطنبول متوجهاً إلى حلب، حيث استغرق السفر لهنالك 44 يوماً رفقة أحد الباشوات. أثناء وجوده في حلب أصيب بمرض، ولم يتمكن من مغادرة المدينة إلا في 23 فبراير 1598. ثم عاد بحرا من إسكندرون إلى فينيسيا، ووصل في 22 أبريل، ومن هناك عاد إلى إنجلترا عبر البر في 29 يونيو.

في عام 1599م قام ساندرسون برحلته الثالثة إلى إسطنبول، حيث تم تعيينه هذه المرة موظفاً في السفارة وأميناً للخزانة. جلب معه آلة أورغن-آلة موسيقية- مخصصة كهديه للسلطان مراد الثالث. نظراً لأن تكاليف هذه الآلة تم تمويلها من قبل شركة ليفانت، فتنها واجهت صعوبات مالية، ولذلك أصدرت الشركة مرسوماً يفرض رسوم على البضائع البريطانية التي تصل إلى الموانئ العثمانية. كانت هذه الرسوم تُجمع على شكل ديون من التجار البريطانيين، وكان يتم إصدار شيكات لتسديدها في لندن. وكان دور ساندرسون هو جمع هذه الأموال من التجار البريطانيين. كما كان له الحق في التجارة باعتباره عضواً في الشركة.

بعد عودته إلى وطنه، واجه ساندرسون صعوبة في العثور على عمل. وعاش بدون عمل معتمداً على الأموال التي جمعها من التجارة، وظل أعزياً طوال حياته، وفي عام 1604م جمع مذكراته.

وبهذا يكون ساندرسون قام ب ثلاث رحلات الى الشرق، بدأت في أكتوبر 1584م وانتهت في أكتوبر 1602م، الأولى من 1584 الى 1588، ورحلته الثانية 1591 الى 1598، بينما رحلته الثالثة كانت من 1599 الى 1602 واستغرقت منه بالتالي هاته الرحلات 18 عام و16 يوم.

لم يترك ساندرسون نسلاً مباشراً بعد وفاته. وقد ذكر في وصيته مبالغ يرغب في تركها لابنة أخته "آنا ألين" (ابنة أخته غريس) بالدرجة الأولى، إضافة إلى أولاده بالتعميد،

عن المادة التاريخية عن روما، وإسبانيا، وفرنسا، كما توجد بالمخطوط مراسلات البابا "كليمنت السابع" والإمبراطور "تشارلز الخامس"، إضافة إلى حكايات وأبيات شعرية باللغة الإيطالية والإنجليزية، إضافة إلى ملاحظات متنوعة عن وصفات لصنع الحبر، وعلاجات لأمراض خطيرة (31).

كما يوجد في المخطوط سيرته الذاتية المكتوبة بخط يده، ووصف لمجمل رحلاته التي قام بها. والفئة المستهدفة لقراءة المخطوط هي فئة تتمتع بمستوى فوق المتوسط في اللغة الإنجليزية، ومعرفة جيدة بالجغرافيا، خاصة معرفة جيدة بجميع الأماكن المقدسة-خاصة المسيحية-.

مشاهدات الرحلة:

تنوعت مشاهدات جون ساندرسون في أراضي الدولة العثمانية بين التاريخية، السياسية، العسكرية، الثقافية، الاقتصادية، والاجتماعية. من بين إيالات الدولة العثمانية التي زارها هي مصر (32)، والتي كانت إحدى أهم محطات جون ساندرسون في رحلاته، عاش بها لحظات مميزة-يعيشها كل من زار مصر- حيث وصفها بشكل دقيق من خلال وصف مدنها ومعالمها التي تعود لأزمنة مختلفة، أول مدنها التي نزل بها هي مدينة الإسكندرية التي يذكر اندهاشه وأعجابه بآثارها من أول وهلة نزل بها، ومن أهم ما ذكره عنها هو افتقارها لبنانيي المياه العذبة، مما أدى إلى نقل المياه لها من نهر النيل (33) عبر قنوات قديمة، لتخزن المياه في خزانات تمتلئ في شهر أغسطس عندما يكون نهر النيل في أعلى منسوب له، ليستعملها ساكني المدينة طوال السنة إلى غاية ملؤها مرة أخرى في نفس الوقت من السنة اللاحقة. كما وقف على بعض معالم المدينة فيقول انه رأى بها كنيسة القديس مرقس، وأنقاض منارة الإسكندرية (34) التي يسميها "الفاروس" (35) ويقول عنها أحد عجائب الدنيا السبع، إضافة إلى مشاهدته لانقاض القلعة التي توفيت بها كليوبترا (36).

اعطى كذلك جون ساندرسون وصفا للقاهرة فيقول " القاهرة أكبر بكثير من القسطنطينية، وهناك أشياء كثيرة جديدة بالملاحظة في المدينة وحولها، والتي يرى ان الكثير من الأشياء التي تروى عنها لا يمكن ان تصدق مثل المستودعات الأثني عشر حيث حفظ يوسف الحنطة خلال سنوات الجوع السبعة (هناك من يقول ان الحنطة كانت محفوظة في أقبية الأهرامات)" (37).

وصموئيل بورشاس، ونقابة الحرفيين "درايز"، وكنيسة القديس فايت، وابن صديقه المتوفى "روبرت كيمي"، وكهنة وخدام الكنيسة المذكورة، وقد نُفذت وصيته في 3 مارس عام 1627 في لندن (29).

مخطوط الرحلة:

لم تتمكن من الاطلاع على المخطوط الأصلي للرحالة الإنجليزي جون ساندرسون، وانما دراستنا له جاءت من خلال دراسة Sir William Foster " السير وليام فوستر" الذي جمعه وحرره، ونُشر ضمن سلسلة HAKLUYT SOCIETY بلندن في 1930م، والذي يعد المرجع الأهم لرحلة ساندرسون كونه يضم تقاريره ومراسلاته، وهو متاح على موقع Gallica المكتبة الرقمية الوطنية الفرنسية.

يحمل مخطوط الرحلة الموجود بالمتحف البريطاني اسم "لانسداون" Lansdowne وهو مجلد ضخيم يبلغ عدد صفحاته مع بعض الوثائق المضافة إليه إلى 411 ورقة، وهي في حالة ممتازة.

اشترى والد المؤلف هذا المجلد قبل 1560م ونستدل على ذلك من خلال العلامات المطبوعة على الورق، وهو مجلد مخصص في الأصل لحفظ الحسابات، كما يحتوي في نهايته على فهرس مقطوع.

أصبح هذا المخطوط مع مرور الوقت ملكاً لرجل الدولة المعروف آنذاك "وليام بيتي" William petty المعروف بجمع الوثائق القديمة، لينتقل المخطوط إلى المجموعة البريطانية الوطنية في 1807م بعد ان تم بيعه مخطوطاته بعد وفاته (30).

محتويات المخطوط غير متجانسة، فهو عبارة عن مجموعة مراسلات نسخها إما ساندرسون بنفسه، أو تلميذه "جون هانجر" John hanger الذي يبدو من خلال كتابته انه غير مهتم، لكثرة الأخطاء في كتاباته، كما إن معظم الرسائل كتبت باللغة الإنجليزية، بينما كُتبت بعضها باللغة الإيطالية، التي كانت تعد آنذاك لغة التواصل بين الأوروبيين في الشرق، و نجد به بعض المعاملات التجارية، وملاحظات عن مبالغ مستحقة -امر طبيعي بالنسبة لتاجر-، كما نجد مقتطفات من كتب دينية نسخها ساندرسون بنفسه، حتى يتسنى له قراءتها بين الحين والآخر نظرا لصعوبة نقل وحمل الكتب الدينية، فنجد نسخة ملاحظات من "يوسيفوس" Josephus ومقتطفات عن القديس أوغسطين ST Augustine، ناهيك

وهو جزءا من شرعيتها، ثالث: حدث اجتماعي كونه كان مناسبة يشارك فيها الناس من كل الفئات، هذا من جهة ومن جهة أخرى بالنسبة لساندرسون كمسيحي أوروبي رؤيته لمسيحيين محليين في مناسبة إسلامية لفتت انتباهه لهذا أوردتها في مدوناته، والتي نرى فيها صورة تجسد التعايش الاجتماعي بين مختلف الفئات والأديان في القاهرة العثمانية.

يتوقف جون ساندerson بمكان بمصر يدعى السبخة فيقول "بالقرب من القاهرة، تبلغ مساحته حوالي ستة أو ثمانية فدادين كما اضمن، كان في الماضي محاطا بمنازل جميلة، في العام الذي كنت فيه هناك خلال فيضان النيل في أغسطس 1586 غمر المكان بالماء، حيث يتم الصيد خلال الشهرين الأولين أو أكثر بينما ينحصر الماء، ثم يزرع القمح في الطين ويحصد بعد ثلاثة أشهر أو أربعة، بعد ذلك ينمو العشب الذي يستخدم لإطعام الماشية لثلاثة أشهر، وفي الفترة الأخيرة من العام قبل فيضان النيل مرة أخرى، يحرق الأرض قليلا لإنشاء قنوات للماء، ويزرع الفجل والجزر واللفت والخس وما شابه، كما يحفظ جزء من الماء في بئر كبير مبني في وسط المكان ل لاستخدامه في نهاية الموسم" (41) كما يتكلم عن تنوع الغطاء النباتي بمصر حيث رأى بها أشجار التين، والخروب، والنخيل وكيفية تلقيح الأشجار التي كانت تتم يدويا، إضافة الى طريقة قطف التمر منها، كما قدم وصفا دقيقا لفاكهة الموز وعن أماكن تواجدها ومذاقها وكيفية زراعتها وقطفها، وأماكن تواجدها، كما كان كل مرة يتكلم عن أهمية نهر النيل في مصر وعن كونه شريان الحياة فيها، وهو بهذا يعطي لمحة عن دورة وطرق وأساليب الزراعة في مصر خلال القرن 16 م.

كما يذكر منطقة تعرف بالمطرية -مدينة شمال شرق القاهرة- فيقول "ذهبت مرتين الى مكان يبعد عشرة اميال عن القاهرة يسمى المطرية، وهو مازال يزار باحترام من قبل المسيحيين، فهو المكان الذي مكث به يوسف، ومريم مع السيد المسيح، يوجد بها نبع ماء يروون انه منذ ذلك الحين...يأتي غالبا الكاثوليك الى المكان ليصلوا بتبتل شديد، ويشيرون الى مكان يشبه الخزانة حيث يقال ان السيد المسيح وضع فيه...بالإضافة الى الماء الذي غسلت فيه السيدة لعذراء ملابس المسيح" (42) كما يقول انه شاهد بها عدت حيوانات، مثل قطط الجبل، عدة أنواع من القردة، والغزلان، والطيور، وفرس النهر، والحمام الزاجل الذي ترسل به الرسائل،

كما يزور ساندerson الأهرامات رفقة أصدقاء ألمان له، ويقدم وصف دقيقا لها من الخارج والداخل، ويقول انها تستحق بالفعل كونها احدى عجائب الدنيا السبع لشدة اندهاشه واعجابه بها، كما زار المومياوات حيث شاهد الآلاف من الجثث المحنطة و يقول "فهي الآلاف من الجثث المحنطة التي دفنت منذ آلاف السنين في كهف رملي، ويبدو انه كان موقع لمدينة قديمة، نزلنا بالبحال كما نزل الى بئر، وفي أيدينا شموع مشتعلة، وسرنا فوق أجساد محنطة، بجميع الأحجام، الكبيرة والصغيرة، وبعضها موضوع في أواني فخارية صغيرة، ليس لها شكل واضح، لم يكن هناك أي رائحة كريهة،...قمت بكسر أجزاء من الجثث لمعرفة كيف تحول اللحم الى مادة شبيهة بالدواء، واحضرت معي الى إنجلترا رؤوسا وأيديا واذرعاً واقداماً لعرضها، اشترينا 600 رطل من المومياوات المقطعة لصالح الشركة...احضرناها الى إنجلترا...بالإضافة الى جثة كاملة، احضرت معي يدا صغيرة الى إنجلترا وعرضتها على اخي الذي بدوره أهداها الى طبيب في أكسفورد" (38) هذا ما يفسر وجود الكثير من الآثار الفرعونية المصرية في مختلف متاحف العالم وحتى في الساحات الكبرى-خاصة إنجلترا وفرنسا- فهذا ما اخذه تاجر انجليزي واحد نهاية القرن 15م، فما بالك بما نهب او بيع وأخرج من مصر -موطنها الأصلي- إلى مختلف مناطق العالم على مر العصور- هناك تقديرات تحصى حوالي مليون قطعة مهربة-.

كما تزامن وجود جون ساندerson بمصر وقوع حدث هام بها، وهو خروج قافلة الحج المصرية (39) من مصر الى مكة، فيقول "في الثالث والعشرين من سبتمبر يغادر أمير الحج -قائد قافلة الحج- القاهرة متجها الى مكة في موكب مهيب، حيث يخرج جميع سكان المدينة لمشاهدته، والغطاء الثمين الذي يُحمل باحتفاء عظيم لتغطية قبر النبي محمد، يشارك في هذا الموكب معظم قديسي القاهرة...ويصحبون القافلة بتبتل شديد...تضم القافلة ما بين 4000-5000 جمل، تلتقي مع قوافل أخرى قادمة من دمشق وحلب والقدس، وعندما تجتمع كلها يُعتقد ان عدد الجمال يتجاوز 20 ألف لكني لا اعتقد ذلك" (40)، وتكمن أهمية هذا الحدث-خروج القافلة- في ثلاث نقاط أولا: حدثا سياسيا من خلال اظهاره لقوة الدولة وقدرتها على تنظيم وتأمين رحلة طويلة وخطيرة الى مكة، ثانيا: حدثا دينيا لأن الحج ركن من أركان الإسلام والدولة العثمانية كانت مسؤولة عن تأمينه كل سنة خلال موسمه،

ومكتبتها التي ضمت 120 ألف كتاب، حتى سقطت -نحن نسليه فتحاً- في يد العثمانيين في 1453م، الذين حولوا الكنائس إلى مساجد، إضافة إلى بنائهم لمساجد جديدة، كمسجد السلطان سليمان القانوني الذي يجسد عجائب العمارة.

ومن أهم معالمها الجغرافية البارزة التي افاض في ذكرها هي التلال السبعة للمدينة، فيقول التل الأول نجد به بقايا القصر الامبراطوري، والتلة الثانية نجد بها مسجد كان كنيسة مدفون فيها الاباطرة البيزنطيون، والتلة الثالثة نجد بها مسجد السلطان محمد الفاتح وقبره، مع مؤسسات خيرية (مساكن مجهزة لاستقبال المسافرين ل 3 ايام، إضافة إلى مساكن للفقراء، وتكايا تقدم الطعام، وصيدلية) كل هاته المؤسسات تقدم خدماتها مجاناً، حيث أوقف السلطان محمد الثاني 60 ألف دوقات لصيانة المكان والتي تبلغ الآن 200 ألف دوقية. والتل الرابع به مسجد وقبر السلطان سليم والد السلطان سليمان، والتل الخامس به مسجد ومقبرة السلطان بيازيد والد السلطان سليم، والتل السادس به مسجد وقبر السلطان سليمان وهو بناء يتناسب مع سلطان مثله، وهو الأكثر زيارة في المدينة، فهو يتفوق في الضخامة والاتقان عن مساجد اسلافه، والتل السابع به المعبد الفخم آيا صوفيا، والذي يسترسل كثيراً في ذكر تاريخه ووصفه.

ويذكر مقر إقامة السلطان العثماني (47) في القرن الذهبي (48)، ويتعرض لتاريخ المكان وكل تفاصيله من قصور ونوافير وحدائق، إضافة إلى وصفه للقصر القديم "اسكي سراي"، كما يقول جون ساندرسون انه تنتشر بالمدينة المساجد الجميلة، حيث يقول ان هناك من أخبره ان عدد المساجد-كبيرة وصغيرة- يبلغ بالمدينة 18 ألف مسجد، إضافة إلى 100 كنيسة مسيحية، كما يرى ساندرسون ان أكبر وأشهر مكان بالمدينة هو "هيبودروم" الذي يسميه الأتراك "آت ميدان" أي سباق الخيل، ليصف التماثيل والاعمدة الموجودة بالساحة.

ليؤكد جون ساندرسون من خلال فصله المخصص لوصف القسطنطينية ان هاته المدينة جمعت بين العمارة البيزنطية والعمارة العثمانية، حيث لطالما كانت عاصمة لإمبراطوريات عظيمة، وهي لاتزال تحتفظ بأسرارها وتاريخها الفريد.

والنعامة، وتماسيح حتى يقول انه طلب من رجل فتح بطن تمساح له -من باب التسلية- فوجد بها 100 حبة بيض صفراء سجل جون ساندرسون بعض أوجه الفساد الإداري بمصر العثمانية 1586-1587م حيث سجل انحرافات في تعامل الولاة العثمانيين مع التجار والأهالي، حيث أجبر الباشا تاجر من جنوة على الاعتراف بأن بضاعته لرجل متوفي، اين تلقى التاجر 15 جلد ابقته طريق الفراش ل 10 أيام، وصادر ممتلكاته المقدرة ب 7000 دوقية وهو مبلغ كبير، والذي حتى بعد عرض قضيته في الديوان وتبين صدقه تواطئ نظام القضاء- إلا أنه أرجع له 400 دوقية فقط والباقي للباشا (43). أما عن حاضرة الدولة العثمانية وعاصمتها إسطنبول فقد كانت الأوفر حظاً من الدراسة والوصف، حتى اننا وجدناه الأشمل والأجمل والأكثر تفصيلاً -على حد اطلاعنا- فهو يصير على تسميتها باسمها القديم قبل فتح المسلمين لها وهو القسطنطينية، فلا يكاد يذكر اسم إسطنبول ولا مرة واحدة، وأول ما يذكرها بها هو الحيوانات التي شاهدها خاصة الحيوانات التي لم يألف مشاهدتها في بلاده بها فيقول "شاهدت العديد من الحيوانات مثل الفيلة والأسود المستأنسة وقطط مرقطة بحجم كلاب الصيد، وغزلان كبيرة وصغيرة (جلبت من مصر) لكن أروع وأجمل حيوان رأيته كان الزرافة...ارسلت هذه الزرافة الجميلة كهدية من اثيوبيا إلى والد السلطان العظيم" (44).

خصص ساندرسون فصلاً للعاصمة العثمانية إسطنبول، حيث قدم إحصاء شامل لساكنيها (45)، و معلومات تاريخية مفصلة عن التاريخ العريق للمدينة، مما ينم عن ثقافته الواسعة بتاريخ المدينة حتى لما يعود إلى تاريخها قبل الميلاد، حيث يقول ان المدينة تأسست في 663 ق.م، تحت اسم بيزنطة، على يد الإمبراطور "يوسنسايان"، ويعود ازدهارها إلى موقعها الاستراتيجي بين البحرين (الأسود-مرمرة)، إضافة إلى خصوبة أراضيها، كما صمدت المدينة أمام حصار "فليب المقدوني" لحكمة الفيلسوف "ليون السفستائ"، ويذكر أيضاً تدميرها من قبل الإمبراطور "سيفيروس"، ثم تم إعادة بنائها "قسطنطين الأكبر" في 315م، الذي جعلها عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (روما الجديدة) وسميت آنذاك ب "القسطنطينية" (46)، ليستمر خلفاؤه في تزيينها، و عرفت المدينة بأصوارها الضخمة، وتحصينات المنيع، وقصورها ومعابدها والتي يأتي على رأسها "آيا صوفيا"،

النمسا إلى المفاوضات، كما نستنتج من اخذ السلطان للسفير الإنجليزي معه في الحملة، التحول العثماني إلى القوى البروتستانتية الممثلة في إنجلترا، كحلفاء ضد الكاثوليكية (النمسا وإسبانيا) هذه التحولات التي ظهرت بعد دعم اليزابيث الأولى للعثمانيين ضد إسبانيا.

اما عن موكب الحملة فيقول ساندرسون "كان الموكب ضخماً ومنظماً، وشمل كلاب مدربة مزينة بأثواب من الذهب والحديد، واعداد كبيرة من الصقور يحملها الفرسان، وحيوانات غريبة مثل الأسود المستأنسة والفيلة، والزرافة، والتي يقودها 3 حراس بسلاسل ذهبية"، بسلاسل ذهبية" (53)، هاته الاستعراضات العسكرية كانت كأداة للترهيب على المستوى الداخلي والخارجي على حد سواء، فتنوع الحيوانات تدل على سيطرت السلطان على عوالم متعددة (أفريقيا-آسيا-أوروبا)، وتهدف أيضا الى ترهيب السفراء الأجانب، من جهة، وإظهار الثورة و التنظيم العسكري يهدف الى تثبيت الولاء بين الجنود والرعايا خاصة بعد تمردات الانكشارية، كما تعطي التفاصيل عن الاحتفالات والمراسيم لمحة نادرة عن الثقافة السياسية والاجتماعية العثمانية من منظور اجنبي. ليواصل ساندرسون تفاصيل عديدة حول هاته الحملة التي كان شاهدا على كل مجرياتها، حيث يقول "أرسل الي السفير رسالة في أكتوبر 1596 أبلغني فيها بكل ما حدث من اخبار مهمة، بما في ذلك سقوط مدينة ايجر وهزيمة المعسكر المسيحي، ولقد ارسلت رسالة الى إنجلترا الى السير روبرت سيسيل السكرتير الرئيسي لجلالة الملكة" (54)، وهاته الرسالة الأخيرة التي ذكرها، هي عينة تبين الرسائل المتبادلة بين السفراء في الشرق والمسؤولين في الغرب -بلدانهم الرئيسية- تبين كيفية نقل الاخبار من الشرق الى الغرب آنذاك. ثم بعد ذلك يذكر عودة السلطان منتصرا من الحملة حتى ان ساندرسون يقول ان نساء رجال الدولة والعامّة خرجن لاستقبال السلطان ورجالهم العائدين بالنصر الكبير، وهو الامر الغير معتاد في سائر الأيام لطبيعة المجتمع العثماني المحافظ آنذاك.

هاته الحملة والاحداث المذكورة تعكس القوة التي كانت عليها الدولة العثمانية في نهاية القرن 16م، رغم بداية علامات الضعف التي سوف تتضح مستقبلا، كما تعكس مدى التفاعل بين الدبلوماسية العثمانية والأوروبية خاصة مع إنجلترا البروتستانتية، التي كانت تسعى لتحالفات غير تقليدية.

في الجانب السياسي في الربع الأخير من القرن 16م فن جون ساندرسون كان شاهد عيان لعدد أحداث متعلقة بهذا المجال، مثل تعيينات و عزل شخصيات هامة في الدولة كما شهد جون ساندرسون انتفاضة الانكشارية ضد السلطان مراد الثالث فيقول " في احدى المرات اثناء حكم السلطان مراد طالب جنود السباهية بدفع رواتبهم، وعندما لم يستجاب لهم اشعلوا قوضى في البلاط، خاف الوزراء على حياتهم فاقتبأوا في مساكن الاتراك بينما خرج معظم الخدم بأدوات المطبخ مثل الاسياخ والملاقط لمحاولة انهاء الشغب، وتمكنوا من طرد السباهية من السراي، قتل في ذلك الاشتباك حوالي 200 شخص او اكثر من جميع الأطراف، وقبل ذلك بفترة قصيرة احضر الجنود راس البكركيك (الذي كان يحبه السلطان كثيرا أين قاموا بركلخه وتدرجه في ساحة البلاط" (49).

كما ذكر وفاة السلطان مراد الثالث 1574-1595م، واعتلاء السلطان محمد الثالث 1595-1603م العرش، اين شهد جون ساندرسون حدث جلل فيقول انه عند تولي السلطان محمد الثالث العرش في 7 يناير 1595 قام بقتل جميع اخوته الذكور خنقا البالغ عددهم 19 امير لمنع الصراع على العرش، وكان ذلك وفق تقاليد عثمانية معروفة (50)، ويضيف ان السلطان شهد أخوته أحياء ثم أمواتا بعد اعدامهم، ودفنوا بجانب والدهم السلطان مراد الثالث في اليوم الموالي، حتى ان احد الاخوة الامراء الذي كان محبوبا وموهوبا ناشد السلطان قائلا "انت سيدي واخي وابي لا تنهي حياتي في هذا العمر الصغير" لكن السلطان لم يستجب وظهر حزنا بينما تم ، تنفيذ الحكم، كما يقول ساندرسون ان السلطان مراد الثالث مجموع أولاده 81 طفلا، توفي 30 طفلا أثناء حياته، و 27 بنتا (51).

كما ذكر ساندرسون في كتابه الحملة العسكرية للسلطان محمد الثالث في عامه الأول وهي ما عرفت بحملة اغري -اكري- Egri، ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث رافقه أثناء الحملة السفير الإنجليزي "ادوارد بارتون" (52) الذي ناب عنه في إسطنبول جون ساندرسون، ولكن قبل ذهابه في الحمل توجهها معاً إلى حسن باشا نائب السلطان أثناء حملته في القصر، حيث وعدهم هذا الأخير بحماية مصالح الإنجليز في العاصمة العثمانية، كما شهد ساندرسون على إطلاق السلطان سراح سجناء نمساويين كانوا في سجن إسطنبول، ليكونوا أداة ضغط في يده لدفع

بعين الرحالة الأجنبي، التي ترقب كل شيء مختلف عن عاداته، والتي ترى كل جديد ومختلف وتدونه.

ذكر جون ساندرسون آثار القسطنطينية القديمة، والآثار المصرية السابقة للعهد العثماني، وهي صفة عامة نجدها تتكرر عند كل الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة، إنما هي في الحقيقة تنم عن اهتمام الأوروبيين بالتراث الكلاسيكي في العالم بصفة عامة، وفي الأراضي العثمانية بصفة خاصة، لربما أيضا هي للإيحاء بأسبقية تواجدهم في المنطقة ؟

يمكن من خلال هذا المخطوط تتبع تحول اللغة الإنجليزية وتطورها من بداية القرن السابع عشر-تاريخ كتابة النص- حيث لاحظنا ان كلمة "if" كانت تكتب "yf"، وكلمة "amongst" كانت تكتب "emongest"، وكلمة "entertainment" كانت تكتب "interteynement" إضافة إلى استخدام ساندرسون في الفعل المضارع "th" بدل "s" مثل "causeth" بدل "causes".

كما يكشف المخطوط عن دور الأفراد -مثل السفير بارتون- في تشكيل التاريخ، وأهمية اتقان اللغات والترجمة التي كان يتقنها السفراء واعوانهم كجسر بين الشرق والغرب.

الخاتمة

هذا المؤلف التي تناولناه بالدراسة للتاجر الإنجليزي جون ساندرسون ليس مجرد مذكرات يومية للسفر، بل هو يتعدى ذلك الى كونه وثيقة تاريخية تكشف عن البنية التحتية للدولة العثمانية نهاية القرن السادس عشر، من طرق وسجون ومدن تجارية، إضافة الى تبينه لحركة سير الأوروبيين في أراضي الدولة العثمانية، سواء لأغراض تجارية او دبلوماسية او دينية، مما يساهم في فهم أعمق واوسع للتنوع والصراع والتعايش في الدولة العثمانية. ان اهتمام الانجليز بالدولة العثمانية لم يكن صدفة، او امر عابر وانما ارتبط بمشاريع تجارية ودبلوماسية على المدى البعيد.

نجد وصف جون ساندرسون في تمثيله للدولة العثمانية من خلال مؤلفه مركباً ويجمع بين المتناقضات من حيث اعجابه بها من جهة وانتقاده لها من جهة أخرى، حيث نجده مندهشاً بما رآه فيها من تنظيم وقوة وهيبة من جهة، وبين التجاوزات والخروقات التي وجدها بها من جهة أخرى، كما شغل باله الاختلاف الثقافي والديني الكبير الذي وجده بها

كما يقول ساندرسون انه حدثت أمور كثيرة اثناء اقامته الطويلة بإسطنبول وهي جديرة بالذكر، والتي يأتي على راسها الاحترام الكبير والاستثنائي -على حد قوله- الذي كان يحظى به السفير الإنجليزي من المسيحيين واليهود والأتراك على حد سواء، وكان ذلك الاحترام بسبب دعم السلطان وبعض الشخصيات العثمانية النافذة في الدولة، الى الحد الذي صار فيه السفير قادراً على تعيين وعزل الامراء والبطريكيات (55)، وهو ما يقدم نظرة عن التعقيدات الثقافية والسياسية في الدولة العثمانية أواخر القرن 16 م، اين تداخلت المصالح الدبلوماسية الأوروبية مع النخب المحلية.

أهمية المخطوط:

جاءت رحلات جون ساندرسون الى الدولة العثمانية في عهد الملكة اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات العثمانية الإنجليزية في بداياتها، وهو ما جعل رحلاته تلقى صدى واسعا لدى الجمهور الإنجليزي، وذلك كونها مصدر اولي ومباشر عن العثمانيين بلغتهم الام-اللغة الإنجليزية-. ومما لا شك فيه ان رحلاته كانت نموذج يحتذى به الرحالة الإنجليز الذين جاءوا من بعده، خلال القرن 17 و18م، للذين راح عدده يتزايد

كتب الرحالة الإنجليزي مذكراته التي دُون فيها كل ملاحظاته وأرائه حول الأماكن التي زارها، والاحداث التي عاشها، ناهيك عن الأشخاص الذين اجتمع بهم، والتي قدم من خلالها تحليلاً لتاريخ الدولة العثمانية، واوضاعها السياسية، والاجتماعية، والعسكرية، والثقافية، إضافة الى العادات والتقاليد السائدة بها، كما وصف في مذكراته الطرق التي مر بها، والقصور التي دخلها، والمدن التي زارها، والمعالم التاريخية التي وقف عليها، كما نالت إسطنبول حصة الأسد من حيث ذكره لتاريخها على مر الأزمنة، وذكره لمبانيها ومعالمها. إضافة الى ذكره لحركة السفر والطرق التجارية، كذكره لمحطات طريق القوافل الرئيسي الذي يربط الاناضول بالعاصمة العثمانية -من قونية إلى إسطنبول-.

تعد مذكرات رحلة جون ساندرسون وثيقة مهمة عن التاريخ الثقافي للمجتمع العثماني، وذلك لكونها كتبت من منظور مختلف تماماً عن المصادر التركية، إضافة الى كونها ركزت على مواضيع مختلفة غير مألوفة، وذلك لأنها كتبت

عن أوروبا، وهو بهذا رسم صورة للدولة العثمانية تجمع بين احترام قوة السلطان والجيش العثماني، وبين الريبة من الدين والعادات الغربية عنه.

وفي الختام نقول ان نص رحلة جون ساندرسون يمثل حلقة مهمة في مسار تشكل الرؤية الإنجليزية للدولة العثمانية نهاية القرن 16م، من حيث انه يوفر للمؤرخين مصدراً غنياً بالمعطيات والمعلومات.

الملحق(1): تواريخ مدة خدمة السفراء الانجليز في الدولة العثمانية من 1582-1702".(56)

السفير	تاريخ التعيين	تاريخ الوصول إلى إسطنبول	تاريخ مغادرة إسطنبول	مدة الخدمة	تاريخ الإغفاء من المنصب / الوفاة
ويليام هاربورن	20 نوفمبر 1582	26 مارس 1583	أغسطس 1588	5 سنوات	1588
إدوارد بارتون	1591/1593	-	-	4/6 سنوات	ديسمبر 1597
هنري ليلو	1597	-	24 مايو 1607	10 سنوات	1607
السير توماس جلوفر	13 أبريل 1606	23 ديسمبر 1606	-	5 سنوات	17 سبتمبر 1611
بول بندار	27 سبتمبر 1611	ديسمبر 1611	مايو 1620	7 سنوات	25 يناير 1618
السير جون إير	14 ديسمبر 1619	أبريل 1620	-	سنة واحدة	9 يوليو 1621
السير توماس رو	6 سبتمبر 1621	28 ديسمبر 1621	يونيو 1628	6 سنوات	26 أكتوبر 1627
السير بيتر ويتش	18 نوفمبر 1627	10 افريل 1628	مايو 1639	11 سنة	1639
السير ساكفيل كرو	14 يوليو 1638	أكتوبر 1638	23 نوفمبر 1647	9 سنوات	يناير 1647
السير توماس بنديش	1 فيفري 1647	26 سبتمبر 1647	11 مارس 1661	14 سنة	25 يونيو 1660
السير هيننج فينش	25 يونيو 1660	17 يناير 1661	يناير/مايو 1669	8 سنوات	19 ديسمبر 1667
السير دانيال هارفي	3 أغسطس 1668	20 ديسمبر 1668	-	4 سنوات	26 أغسطس 1672
السير جون فينش	7 نوفمبر 1672	18 مارس 1674	نوفمبر 1681	7 سنوات	-
جيمس اللورد تشاندوس	29 ديسمبر 1680	22 يوليو 1681	أكتوبر 1687	6 سنوات	نوفمبر 1684
السير ويليام ترمبل	15 أكتوبر 1686	17 أغسطس 1687	31 يوليو 1691	4 سنوات	-
السير ويليام هوسي	20 أبريل 1690	28 يونيو 1691	-	سنة واحدة	14 سبتمبر 1691
ويليام هاربورد	2 نوفمبر 1691	-	-	سنة واحدة	31 يوليو 1692
اللورد باجيت	5 سبتمبر 1692	يوليو 1693	مايو 1702	9 سنوات	-

الملحق(2): جدول إحصاء ساكني إسطنبول نهاية ق 16م حسب ما ذكره جون ساندرسون"

6	الوزراء كل وزير له ألف اقجة في اليوم أجرة. والسلطان يعطي نفسه ألف وواحد اقجة في اليوم.
4	القضاة
	العشرة السابق ذكرهم يجلسون في الديوان للحكم في جميع القضايا.
1	المفتي، وهو كبير قضاة والاعلى مرتبة.
9	الدفتدار هو الخازن. إمرأهور باشي [أمير الأخور باشي]، رئيس الخيل. آغا الإنكشارية، قائد الإنكشاريين. آغا التشاوش. آغا القابيجي. آغا السباهية. باشي البستانجي. كابتان باشا. آغا القابي
300	الحرس الشخصي المقربين من السلطان
300	السولاك، وهم حرسه المشاة
300	الصقارون، والأقزام، والبكم
1000	جواري اطلق عليهم بغات
1600	التشاوشات، أي الضباط أو الرقباء التابعين لمحاكمه
700	القابوجية [البوابين] الذين يقفون على أبوابه (70 منهم يوميا في الخدمة)
30,000	السباهية، وهم فرسانه وأتباعه النبلاء
24,000	الإنكشارية أي المشاة او الجنود العاديين
3,000	الطوبجية أي المدفعية
20,000	القابي قولاي أي الشبان المهيؤون ليصبحوا إنكشارية
81,207 81,220	المجموع:
200,000	أتراك آخرون، سكان المدينة (عدا النساء والأطفال):
200,000	المسيحيون من جميع البلدان على الأقل
150,000	اليهود في المدينة وحولها على الأقل
600,000	النساء والأطفال من مسيحيين ويهود وأتراك
1,231,207 1,231,220	المجموع الكلي:

. قائمة المراجع:

- احمد صالح عبوش، الملكة اليزابيث (1558-1603)، المكتب العربي للمعارف، مصر، 2015.
- احمد محمود علو السامري، محمد حمزة حسين الديلمي، "الإنكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، مج 17، ع 2، 2010، ص 70-85.
- أكمل الدين احسان اوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر صالح سعداوي، إسطنبول، 1999، ص 153-154.
- حمساء بنت حبيش، قوافل الحج والتجارة ودورها المختلفة ابان العصر العثماني (1517/1218-1803)، مجلة كلية الآداب بقنا، ع 48، 2018.
- خليل اينالجيک، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، تر محمد الارناؤوط، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2002.
- رائسي ادريس، العلاقات العثمانية -الأوروبية في القرن السادس عشر، دار الهادي، لبنان، 2007.
- صالح كولان، سلاطين الدولة العثمانية، تر منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، 2014.
- عبد الحق بن ملاحي التركماني، الصلاحي وقانون قتل الأخوة والخوض في التاريخ العثماني بالباطل، إسطنبول، 2020.
- عبد القادر فكاير، "دور الاسطول الجزائري في معركة ليبانتو 1571"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 09، 2014.

للتاج البريطاني في الدولة العثمانية، حيث أدارت كل شؤون القنصلية وحمت مصالح التجار الإنجليز، كما نجدها ساهمت في توطيد العلاقات الإنجليزية العثمانية-خاصة في عهد السلطان مراد الثالث والملكة إليزابيث الأولى، أين لعبت الشركة دورا في المناورات السياسية بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية، كان لشركة المشرق فروع رئيسية في حلب-أهم مركز تجاري-، إسطنبول، أزمير، الإسكندرية، قبرص، اليونان-في فترات لاحقة- وبدا نفوذ شركة المشرق في التراجع لعدة أسباب 1 تصاعد شركة الهند الشرقية البريطانية، التي حولت محور اهتمامها إلى آسيا، 2 تغير التحالفات السياسية في أوروبا بعد حروب نابليون، 3 تراجع النظام الاحتكاري لصالح التجارة الحرة في القرن 19م، لتلغى الشركة رسميا في 1852م، لكن بقي أثرها كأحد أبرز نماذج التجارة الاستعمارية المبكرة التي ربطت أوروبا بالعالم الإسلامي.

Alfred C. Wood, A History of the Levant Company, Oxford: Oxford UP, 1935, pp. 1-42.

² رانسي ادريس، العلاقات العثمانية -الأوروبية في القرن السادس عشر، دار الهادي، لبنان، 2007، ص 154.

³ استنجد ملك المجر "سيجموند" بأوروبا الغربية لإدراكه عدم قدرته على توقيف التقدم العثماني لوحده، لتتولى البندقية الدعوة إلى حملة صليبية، إلى جانب الملك سيجموند بمباركة البابا، فانضم للحلف كل من بيزنطة، بولغنديا، البندقية، فرنسا، وأمراء من بافاريا، والنمسا، وفرسان القديس يوحنا في رودس، وكما قدمت بريطانيا مساعدات عسكرية، وكان الهدف هو طرد الأتراك من أوروبا، وعاودتهم إلى الاناضول، ليجتمع الحلفاء في بودا بجيش قوامه 130 ألف جندي، إضافة إلى بحرية البنادقة التي تولت مهمة كسر الخطوط البحرية العثمانية المتواجدة في مضيق البوسفور والدردنيل، وعندما علم السلطان بايزيد الأول بتقدم القوات الصليبية سار إليها، وانظم له أسطفان ملك الصرب، إضافة إلى الأمراء النصارى الخاضعين للحكم العثماني، لتنتقل المعركة في 25 سبتمبر 1396م، ضيق عليهم ببايزيد الأول وأرادوا الفرار عن طريق نهر الدانوب، لكنهم فوجئوا بالقوات العثمانية متمركزة هناك، فمات منهم 100 ألف، ووقع عشرة آلاف أسرى في أيدي العثمانيين، وتمكن 20 ألف من الفرار بشكل منفرد، من بينهم ملك المجر، وكان ذلك لجهل الأوروبيين بتكتيك العثمانيين، ليكن انتصارا عثمانيا كبيرا. محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، لبنان 2013، ص 60-63.

⁴ السبب المباشر لمعركة ليبانت هو فتح العثمانيين لجزيرة قبرص، التي كانت تابعة آنذاك للبندقية، مما دفع الأوروبيين إلى التحرك نحو ليبانتو، والتي على الرغم من عدم وثامها التام فيما بينها، إلا أنها أسرعت إلى تلبية نداء البندقية، خوفا من امتداد الزحف الإسلامي نحوها، وكان للبابا بيوس الخامس دور كبير في توحيد شمل الأوروبيين: إسبانيا، البرتغال، فرنسا، بولندا، أمراء إيطاليا، امبراطور المانيا، إضافة إلى البندقية. وتم توقيع "الحلف المقدس" في 25 ماي 1571م، غادر الأسطول المسيحي مضيق ميسينا في 16 سبتمبر 1571م، لتبدأ المعركة بين الطرفين في 7 أكتوبر 1571م في الخليج الواقع بين باتراس وليبانتو، لتنتهي المعركة بهزيمة مدوية للعثمانيين الذين خسروا أكثر من 30 ألف مقاتل خلاف ما

قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط2، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2003.

ليلى عبد الجواد إسماعيل، "القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب" مجلة المؤرخ المصري، ع3، جامعة القاهرة، مصر، جانفي 1989، ص 163-165.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، لبنان 2013.

محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح احسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981.

نيقولايف ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، تر يوسف عطاء الله، دار الفارابي، بيروت، 1988.

وليد بودانة، "جغرافية القسطنطينية وعمايتها من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين في العصر الوسيط"، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، ع 3، الجلفة، 2018.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر عدنان محمود سلمان، منشورات فيصل للتمويل تركيا، إسطنبول، 1988.

Alfred C. Wood, A History of the Levant Company, Oxford: Oxford UP, 1935.

Ayşe Özge ERCAN, İngiliz seyyah John Sanderson'in seyahatnâmesi (1584-1602) türkçe çeviri ve İstanbul gözlemlerinin değerlendirilmesi, Yüksek Lisans Tezi, Tarih Anabilim Dalı, İstanbul Üniversitesi, 2014.

John Sanderson, The travels of John Sanderson in the levant 1584 -1602. Foster, Sir William. Editor. Editorial: Hakluyt society, London, 1931. Nicolae Jorga, "Osmanlı İmparatorluğu Tarihi", Cilt I-V", Yeditepe Yayınevi, 2005.

Rabia DEMİR, Osmanlı-ingiliz diplomatik münasebetleri (1580-1699), Tezli Yüksek Lisans Tezi, İzmir Kâtip Çelebi Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Tarih Anabilim Dalı, İzmir-2021.

.الهوامش:

¹ تأسس شركة المشرق The Levant Company كما نجدها أيضا باسم شركة ليفانت في 1581م بمرسوم ملكي من ملكة إنجلترا الملكة إليزابيث الأولى، كشركة تجارية انجليزية ذات امتيازات احتكارية في التعامل في أراضي الدولة العثمانية، بما في ذلك بلاد الشام والآناضول ومصر، كما عرفت أيضا باسم "شركة تركيا" Turkey Company وكانت تعتبر هاته الشركة امتدادا لجهود إنجلترا لتعزيز نفوذها التجاري في مواجهة المنافسة الأوروبية- خاصة البندقية وفرنسا، اهتمت هاته الشركة باستيراد السلع المشرقية الثمينة مثل: الحرير من بلاد الشام وإيران، التوابل والبهارات من الهند عبر الموانئ العثمانية، إضافة إلى الأصباغ كالنيلة والزعفران، والقطن والمنسوجات، والأحجار الكريمة، واللؤلؤ، وفي المقابل قامت هاته الشركة بتصدير الصوف الإنجليزي، المعادن، الأسلحة، -في فترات محدودة- إضافة إلى مختلف المنتجات الصناعية الأوروبية، ولم تكن هاته الشركة مجرد كيان تجاري ربحي فقط، بل كانت بمثابة ممثل غير رسمي

حرباً طويلة الأمد ومكلفة ضد بلاد فارس والنمسا، كما شيد بمنيسا مسجد المرادية، الذي صممه المعماري سنان، وهو مجمع كبير يتألف من مسجد، جامعة، خان، فندق، كما كان للسلطان عدت معالم عمرانية أخرى في إسطنبول ومكة المكرمة، توفي السلطان بإسطنبول في 16 كانون الثاني 1595م بسبب مرض الكلى. صالح كولان، سلاطين الدولة العثمانية، تر منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، 2014، ص 130-137.

⁸ يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر عدنان محمود سلمان، منشورات فيصل للتمويل تركيا، إستانبول، 1988، ص 393.

⁹ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح احسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981، ص 260.

¹⁰ بدا العمل بها في 1536م بناء على تحالف بين السلطان العثماني سليمان القانوني مع نائبة ملك فرنسا -والدته- بعد اسر الملك الفرنسي فرنسوا الأول في مدريد من قبل شارل الخامس ملك إسبانيا والنمسا وهولندا وألمانيا، أين رجعت والدته فرنسوا الأول السلطان سليمان لتخليص ابها، الذي اضطر لتوقيع معاهدة مجحفة في حق فرنسا لقاء اطلاق سراحه، ولتخليص فرنسا من الحصار المفروض عليها، وقام السلطان سليمان القانوني بفتح المجر والوصول إلى حدود النمسا وتشيكوسلوفاكية، ودخلت الدولة العثمانية بين دول أوروبا الوسطى، كما كان الأسطول العثماني في غربي المتوسط يحمي الجهة الجنوبية لفرنسا، مما أتاح لفرنسا البروز كدولة قومية خلال القرن 16م، ولقد اشتملت معاهدة الامتيازات هاته على 16 بنداً أتاح لفرنسا تحقيق مصالح تجارية وسياسية لم تكن تحلم بها أي دولة أوروبية. قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط2، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2003، ص 19-18.

¹¹ تولى منصب الصدر الأعظم ل 14 سنة و 13 شهر و 15 يوما، يأتي تسلسله التاسع من حيث أطول مدة بقاء في رئاسة الوزراء التركية، لم يخرج بنفسه خلال فترة صدارته لأية غزوة، وكان يرسل القادة ولم يرضى بخروج كل من سليم الثاني ومراد الثالث لأية حملة، كما عرف بتجاوز تقاليد عهد القانوني، وخلف بعده عددا لا يحصى من المؤسسات الخيرية. يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 427-426.

¹² Rabia DEMİR, Osmanli-ingiliz diplomatik münasebetleri (1580-1699), Tezli Yüksek Lisans Tezi, İzmir Kâtip Çelebi Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Tarih Anabilim Dalı, İzmir-2021, P 48-58.

¹³ وفقا لتقارير السفير الفرنسي بالدولة العثمانية "جاك دي جرمي" انه عند وصول هاربون في 1578 إلى الدولة العثمانية حمل معه رسالة إلى السلطان مراد الثالث من الملكة إليزابيث، وعلى الرغم من أن السلطان لم يستقبله استقبالا جيدا ولم يتلقى أي رد، إلا انه كان جذب الصدر الأعظم صقلي محمد باشا بالهدايا والوعود.

Ayşe Özge ERCAN, Ibid, P 23.

Nicolae Jorga, "Osmanli İmparatorluğu Tarihi", Cilt I-V", Yeditepe Yayınevi, 2005, P 300-310.

¹⁴ Nicolae Jorga, Ibid, P 996.

¹⁵ Ayşe Özge ERCAN, İngiliz seyyah John Sanderson'in seyahatnâmesi (1584-1602) türkçe

اسر من الجنود، اما عن الخسائر المادية فقدرت بحوالي مائة وثلاثون سفينة عثمانية اخذت، واحرق واغرق قرابة 94 سفينة، وبقدرها "بول شاك" ب 30الف قتيل، 18الف اسير، تحرير 12 الف اسير مسيحي، وفقدان 190 سفينة، بينما قتل من جانب التحالف ال 8الف وجرح 110الف، ومن اهم أسباب هذا الانهزام: 1: عدم اخذ قائد الاسطول بنصيحة علق علي، الذي كان يرى بخروج سفن المسلمين الى عرض البحر، حتى لا تحاصر في مكان ضيق، 2: كان في مقدمة السفن 6 سفن من نوع "غالياس" Galeasse الضخمة التي كانت قادرة على التصدي للقصف المدفعي العثماني، 3: امتلاك الجنود المسيحيين لدروع حمتهم من السيوف والسهم العثمانية، 4: اغلب الجنود المسيحيين مزودون بأسلحة نارية بينما كان الجنود العثمانيون مسلحين بالسيوف والرماح والسهم، أما عن النتيجة الكبيرة لهاته المعركة فهي تخلي العثمانيين عن مشروع استرجاع الاندلس من يد النصارى، إضافة إلى فقدان العثمانيين لعدد كبير من خبراءهم البحريين، ما يصعب عليهم تعويضهم وهو ما ظهر لاحقا من حيث التراجع الكبير للبحرية العثمانية. عبد القادر فكاي، "دور الاسطول الجزائري في معركة ليبانتو 1571"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 09، 2014، ص 415-422.

⁵ خليل اينالجيک، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، تر محمد الانزاوط، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2002، ص 214-215.

⁶ هي ابنة الملك هنري الثامن 1509-1547م، ووالدها أن بولين 1501-1536م، ولدت إليزابيث في 6 أيلول 1533م، ليعلم انها ابنة غير شرعية ويقطع راس والدها وهي في سن سنتين وثمانية اشهر، وتوفي ابها الملك هنري الثامن في 1547م، وعمرها 13 سنة، ليتوفي الملك اوارد الذي خلفه بدوره في 1553م وعمرها آنذاك 20 سنة، لتحكم اخها الملكة ماري العرش الإنجليزي، لتوضع تحت الإقامة الجبرية لثبوت تامرها على الملكة الجديدة، لتعلم الملكة ماري مع قرب اجلها ان إليزابيث هي وريثتها الشرعية، وطلبت من رجال الدولة تقديم كل الدعم لها عند اعتقالها العرش، وتوفيت الملكة ماري تيودور في 17 تشرين الثاني 1557، واخذ رئيس الأساقفة الكاثوليكي في المبادرة في اعلان إليزابيث ملكة إنجلترا، ليكون اهم عمل قامت به هو تغير المذهب الى البروتستانتية في 1559م، توج عهد الملكة إليزابيث بالنصر على اسطول الارمادا، وأعادت إنجلترا إلى مركزها الحقيقي بين دول العالم، ويذكر السير "جون هارينجتون" إن ضعفها الجسدي والعقلي راح يملكها بسرعة ففي اذار 1603م، اخذت إلى سريرها، وصار مرضها يزداد سوءا يوما بعد يوم، لتعلن ان وريثها على العرش هو ملك اسكتلندا "جيمس السادس"، لتتوفي الملكة في 24 اذار 1603م، عن عمر ناهز 70 عاما، لحكم دام 46 سنة على التاج الإنجليزي. احمد صالح عبوش، الملكة إليزابيث (1558-1603)، المكتب العربي للمعارف، مصر، 2015، ص 7-199.

⁷ ابن السلطان سليم الثاني ونوربانو سلطان ولد في مانيسا 4 يوليو 1546م، كان واليا على "اق شهير" و"ساروهان" ليعتلي العرش في عن عمر 28 عاما في 1574م، جدد ولاية الصدر الأعظم لمحمد سوكولو باشا-صقلي-، كان السلطان محبا للأدب والخط والفن، كما اهتم بالتاريخ، كما كان طبيبا وكراما مع افراد عائلته، كما كان اشقر الشعر، متوسط البنية، وكان يمتنع عن إراقة الدماء الا نادرا، دخلت الدولة العثمانية خلال عهده

1516-1574، تر يوسف عطاء الله، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص 67-75.

³³ لما أنشأ الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية فكر في طريقة لتزويد المدينة بالماء لقلة مياهها والتي كانت لا تكفي سكانها، ففكر في إيجاد ينبوع لتزويد المدينة، وهذا الينبوع لا يمكن أن يكون إلا من نهر النيل، فعمل على إنجاز هذا المروع وكان فرع النهر الأقرب إلى المدينة هو الفرع الكانوبيل هذا حفر من شيديا إلى الإسكندرية أول ترعة في 331 ق.م. عمر طوسون، تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة الحمودية، مؤسسة هندايو للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 11-26.

³⁴ تعتبر منارة الإسكندرية من عجائب الدنيا القديمة بناها المهندس سوستراتوس Sostratos من كندوس خلال عصر الملك بطليموس الثاني حوالي 246-285 ق.م، وعرف هذا المهندس بأنه أبو المنارات. عزت زكي حامد قادوس، آثار الإسكندرية القديمة، ط 2، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 2000، ص 7-150. شيدت المنارة على قاعدة واسعة مربعة ومدخلها من الجهة الجنوبية وهي مشيدة على الطراز البابلي على هيئة ثمانية أبراج كل فوق الآخر وكل منها أصغر حجما من الذي اسفله (نظام هرمي) ويقول ابن جبير ان منارة الإسكندرية تشاهد على بعد يزيد عن 70 ميلا. المنارة مبنية على أربعة طوابق، الطابق الأول يظم حوالي 400 حجرة لإقامة العمال والحرس وتوضع بها الآلات والمعدات والوقود، والطابق الثاني مئمن الشكل، والطابق الثالث مستدير الشكل يعلوه مصباح أقيم على ثمانية أعمدة تحمل قبة فوقها تمثال كبير يرجح انه لإله البحر بوسيدون Poseidon وهي مبنية بالحجر الجيري وأعمدتها من الغرانيت، بقيت المنارة تؤدي وظيفتها في إرشاد السفن حتى الفتح العربي في 641-642م لتتوالى عليها الكوارث ففي 700م سقط المصباح وتهدم الطابقان العلويان، ليرمهما أحمد بن طولون 880م، لتحل بها كارثة أخرى في 1100م اثر زلزال ضرب المدينة، ثم زلزال آخر في أواخر القرن 14م، الذي اتى على ما تبقي منها، ثم تبعثر حجارها في أنحاء الجزيرة، ليقيم السلطان قاتباي في 1480م على أنقاضها حصنا، والذي جدد فيما بعد محمد علي، وهدم الإنجليز هذا الحصن في 1882م عند احتلالهم مصر، لتقوم مؤخرا مصلحة الآثار بترميمه وتقويته. هنري رباح، يوسف حنا شحاته، يوسف مفيد الغرياني، دليل آثار الإسكندرية، الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة، مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر 1965، ص 17-19.

³⁵ من غير المعروف أن كانت الجزيرة اكتسبت اسمها الفاروس من المنارة أو ان المنارة اكتسبت اسمها من الجزيرة، وكانت جزيرة الفاروس منفصلة تماما عن ارض اليابسة في الإسكندرية القديمة ولكنها أصبحت الآن جزء من الإسكندرية الحديثة (منطقة المنشية ومجمع المساجد) وكان طول الجزيرة المواجهة للشاطئ من أقصى الشرق الى أقصى الغرب 2600 متر، بينما عرضها يبلغ 400-500 متر وتوجد بها صخرة طولها 230 متر وعرضها 200 متر شيدت فوقها منارة الإسكندرية القديمة. عزت حامد قادوس، المرجع السابق، ص 57.

³⁶ John Sanderson, Ibid, P 40.

³⁷ John Sanderson, Ibid, P 42.

çeviri ve İstanbul gözlemlerinin değerlendirilmesi, Yüksek Lisans Tezi, Tarih Anabilim Dalı, İstanbul Üniversitesi, 2014, P 26

¹⁶ Rabia DEMİR, Ibid, P 41-47.

¹⁷ Ayşe Özge ERCAN, Ibid, P 30.

¹⁸ تعرف بحملة أكري الهاميونية (1596-6-20/ 1596-12-22) وذلك لخروج السلطان ع لى راس الحملة، بعد عزوف السلاطين على قيادة جيوشهم ل30 سنة، شارك في الحملة السير ادوارد بارتون سفير اليزابيث في الحملة، استقبل الشعب السلطان محمد الثالث في بلغراد بحفاوة، وصل الجيش قلعة اكري -قلعة مهمة جدا في المجر الشمالية كانت بحوزة الالمان- وتم فتحها في 18 يوم، وصارت مركزا للإيالة وعين عليها بكلربك ارضروم "صوفو سنان باشا". يلماز اوزتونا، المرجع السابق، ص 438-441.

¹⁹ Rabia DEMİR, Ibid, P 58-70.

²⁰ Ayşe Özge ERCAN, Ibid, P 34-35.

²¹ Ayşe Özge ERCAN, Ibid, P 36.

²² Rabia DEMİR, Ibid, P 67.

²³ Rabia DEMİR, Ibid, P 69.

²⁴ وهناك من يقول انه لم يرسل للتجارة وانما أرسل برسالة الى بريطانيا بشأن عملية قرصنة بحرية انجليزية. Rabia DEMİR, Ibid, P 71-72.

²⁵ Ayşe Özge ERCAN, Ibid, P 38.

²⁶ خليل اينالجيك، المرجع السابق، ص 215.

²⁷ Ayşe Özge ERCAN, Ibid., P 40-46.

²⁸ Ayşe Özge ERCAN, Ibid., P 43.

²⁹ Ayşe Özge ERCAN, Ibid., P 46.

³⁰ المخطوط ص 9

³¹ John Sanderson, The travels of John Sanderson in the levant 1584 -1602. Foster, Sir William. Editor. Editorial: Hakluyt society, London, 1931, P IX-X.

³² أراد السلطان العثماني تسوية الأمور مع الممالك حيث ارسل بعثة الى القاهرة اقترحت تقديم الولاء للسلطان العثماني وفي المقابل يعهد اليهم بإدارة مصر نيابة عن السلطان سليم الاول، ويحفر اسمه على النقود، ويدعى له في خطبة الجمعة، ويدفع الممالك الضريبة التي كانوا يدفعونها أيام الدولة العباسية، لكن الممالك لم يتقبلوا فكرة الهزيمة في مرج دابق 1516م- الشام-، واعتبروا تقديم الولاء من العار، فجيز الحاكم الجديد طومان باي جميع فصائل الممالك، ونفس الشيء للعثمانيين الذين عبروا صحراء سيناء ووصل ديلتا النيل اين لقو ترحيبا من شعب مصر الناقمين على الحكم المملوكي، ليكون التقاء الجيشين في الريدانية -الضاحية الشمالية لعاصمة الممالك- في منتصف كانون الثاني 1517م، وانتصر العثمانيين لان جيش الممالك كان غير متجانس، ويفتقر الى الروح القتالية العالية، ليفر طومان باي الى القاهرة وتحوله الحرب الى معارك في الشوارع، ليتم اخضاع القاهرة من قبل العثمانيين، وفر طومان باي، ليعقد سليم الأول في شهر مايو 1517م ما يشبه المؤتمر الشعبي العام في القاهرة، حضرته كل أطراف المجتمع، اين لخص فيه مبادئ السياسة الجديدة واعلن تعيين الموظفين الكبار في الدولة، ولم يحدث تغير جوهري في هيكل الإدارة، في مصر العليا اقيمت السلطة في ايدي شيوخ البدو، اما مصر السفلى والوسطى فقد بقيت السلطة في ايدي الممالك الذين انظموا الى السلطان سليم الأول. نيقولاوي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية

القسطنطينية وعمارتهما من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين في العصر الوسيط"، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، ع 3، الجلفة، 2018، ص 174-189.

⁴⁷ عرف بسراي طوب قاي ولقد اقام السلاطين العثمانيون قرابة أربعة قرون من الزمن فيه، ويتكون من 3 تشكيلات أساسية وهي: "البيرون" و"اندرون" و"الحريم" وهو محاط بالبحر من ثلاث جوانب، ويغطي مساحة قدرها 700000 متر مربع، وله ثلاثة أبواب رئيسية هي: الباب الهمايوني، باب السلام، باب السعادة، كما ضم فناءات وساحات وحدائق عديدة وحوطت أطرافه بسور مرتفع يعرف باسم "السور السلطاني" بطول 1300 متر، بدا السلطان محمد الفاتح في تشييده وظل محل الإقامة السلطانية الرسمية للسلاطين من بعده حتى ق 19م أين جرى الانتقال منه إلى سراي "طويلة باعجة"، وشارك تقريبا كل السلاطين الذين أقاموا به بتشديد قسم أو بتعديل قسم موجود، ليتحول في 3 أبريل 1924 بموجب قرار أصدره مجلس الوزراء إلى متحف مفتوح للزوار. أكمل الدين احسان اوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر صالح سعداوي، إستانبول، 1999، ص 153-154.

⁴⁸ وهو ما يعرف بخليج القسطنطينية والمعروف باسم ضيق البوسفور، وتطل عليه القسطنطينية من الشرق والشمال، واختلف الجغرافيون المسلمون في تحديد طول خليج القسطنطينية قديما، وذكر ابن خرداذبة والإدريسي أن طول الخليج من بحر البنطس إلى مصبه في بحر الشام بثلاثمائة ميل وعشرون ميلا، في حين يذكر المسعودي والحيري أن طول هذا الخليج نحو ثلاثة مائة وخمسين ميلا. ويحيط هذا الخليج بمدينة القسطنطينية من ناحيتي الشرق والشمال فانه في الشمال يكون أشبه بالمنجل أو بقرن الغزال، ويعرف في التاريخ باسم "القرن الذهبي". ليلي عبد الجواد إسماعيل، "القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب" مجلة المؤرخ المصري، ع 3، جامعة القاهرة، مصر، جانفي 1989، ص 163-165.

⁴⁹ John Sanderson, Ibid, P 57.

بعد وفاة السلطان سليمان القانوني اتخذت تمرادات الانكشارية طابعا مختلفا، بحيث اخذوا يتحدون سلطة السلاطين والصدور العظام، وفي تحديد مصير كبار الدولة، ففي عهد السلطان مراد الثالث (1574-1595) فقد تم قتل الدفتر دار وبكليك الرومي محمود افندي ودوغانجي محمد باشا أمام عجز السلطان عن حمايتهما ونجا الوزير الأعظم سياوش باشا المسؤول الحقيقي عن الحادثة، وكان ذلك في 998هـ/ 1589م في الحادثة المعروفة باسم "واقعة البكليك Baylerbey Vaskasi". احمد محمود علو السامري، محمد حمزة حسين الديلمي، "الإنكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، مج 17، ع 2، 2010، ص 70-85. يلماز اوزتزن، المرجع السابق، ص 428.

⁵⁰ قتل يوم اعتلاء العرش لمحمد الثالث في 17 جمادى الأولى 1003 الموافق ل 28 كانون الثاني 1595م تسعة عشر أخ للسلطان بأمر منه، حيث تم دفنهم في يوم واحد مع أبيهم وأبوه السلطان مراد الثالث عند أيا صوفيا، يقال إن أكبرهم لا يتجاوز 11 من عمره ونفذت هاته الجريمة باسم "قانون حفظ نظام العالم"؟ عبد الحق بن ملا حقي التركماني، الصلابي وقانون

³⁸ ساندerson ص 44، 45. المكان الذي وصفه ساندerson في نصه، والذي كان يحتوي على لآلاف المومياوات، هو على الأرجح منطقة سقارة، جنوب القاهرة، والسبب في ذلك ان موقع سقارة على بعد حوالي (25-30) كلم من القاهرة، وهو ما يتطابق مع المسافة المذكورة في النص (5-6) اميال، كما تحتوي سقارة على مقبرة رئيسية لمدينة منف القديمة، وهو ما يتوافق مع النص، إضافة الى احتوائها على مقابر جماعية، ومومياوات تعود لعصور مختلفة.

³⁹ هي قافلة تضم حجاج مصر وشمال افريقيا، وكانت تعد من اهم القوافل اثناء العهد العثماني، وكانت تضم المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة، وكانت هاته القافلة تحت قيادة امير الحج المصري الذي كان يحظى بمكانة مرموقة من الناحية الدينية والمادية والسياسية، وكانت تربطه علاقة مباشرة بالباب العالي لكونه مرسلا من السلطان العثماني زعيم المسلمين، وكانت تتم الاستعدادات لرحلة الحج قبل خروج القافلة ب 3 اشهر، كاستئجار أمير الحج عدة آلاف من الابل لإنجاز احتياجات الموكب، وقبل خروج موكب الحج يتسلم امير الحج المصري الصرة الشريفة المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين مع تبيان أوجه انفاقها، وبالنسبة لإيرادات أمير الحج للإنفاق على موكب الحج فقد حرصت الدولة العثمانية على توفير الدعم المالي اللازم لأمير الحج لحماية قافلة الحج ومرور موسم الحج دون معوقات كبيرة، حرصا على هيبتها الدينية وسيادتها على العالم الإسلامي، فخصصت له 5000000 بارة لاعداد قافلة الحج، إضافة الى استئجار بعض الحراس من المماليك والمغاربة كانت تخصص الدولة العثمانية حراسة رسمية التي يقوم بها الاوجاقات العسكرية المصاحبة للقافلة. حمساء بنت حبيش، قوافل الحج والتجارة ودورها المختلفة ابان العصر العثماني (1517-1803)، مجلة كلية الآداب بقنا، ع 48، 2018، ص 612-618.

⁴⁰ John Sanderson, Ibid, P 45-46.

⁴¹ John Sanderson, Ibid, P 43.

⁴² John Sanderson, Ibid, P 42.

⁴³ John Sanderson, Ibid, P 53.

⁴⁴ John Sanderson, Ibid, P 57.

⁴⁵ انظر ملحق رقم 2 "جدول إحصاء ساكني إسطنبول نهاية ق 16 م حسب ما ذكره جون ساندerson".

⁴⁶ الامبراطور قسطنطين الأول (306-337)م يدعى قسطنطين بن قسطنطس، ويعرف بأمه هيلاني، حكم ل 31 سنة، -قبل أيضا 25- وكان اول ملوك الروم تنصراً، وعن بنائه للقسطنطينية فقد ذكر بعض الجغرافيين ان قسطنطين الأكبر انتقل إلى بيزنطة وبني عليها سوراً مبالغا في تحصينها وإحكام بنائها، ولم تزل الروم تنتقل إليها حتى صارت قاعدة الملك، واختلف في أسباب بنائها حيث يذكر إسحاق بن الحسين أن عدم قدرة قسطنطين على إظهار تنصره بمدينة روما دفعه لبناء مدينة جديدة، ويقول المسعودي إن أهمية موقع مستوطنة بيزنطة وحصانيتها كانتا عاملا مهما في دفع قسطنطين إلى تأسيس عاصمة جديدة في هذا المكان، كما هناك من يرى أن التهديد الذي كانت تتعرض له اطراف الدولة والشرقية خاصتا-الفرس- هو الذي جعل قسطنطين يبني مدينته هناك للاقترب من أعدائه، اطلق قسطنطين على المدينة تسمية روما الجديدة، بينما سكانها اصروا على تسميتها باسمه وهو ما شاع. وليد بودانة، " جغرافية

⁵³ John Sanderson, Ibid, P 59.

⁵⁴ John Sanderson, Ibid, P 60.

⁵⁵ John Sanderson, Ibid, P 61.

⁵⁶ Alfred C. Wood, A History of the Levant Company,
Oxford: Oxford UP, 1935, PP. 251-253.

قتل الاخوة والخوض في التاريخ العثماني بالباطل، إسطنبول، 2020، ص

36-34.

.John Sanderson, Ibid, P 42

⁵¹ John Sanderson, Ibid, P 58.

⁵² John Sanderson, Ibid, P 58.